كَلِمة الأب رينيه شاموسي

رَئيس جامِعَة القِدِّيس يُوسُف، بَيروت

الأُسرةُ الجامِعِيَّةُ والمُجتَمَع

لِمناسبَة الاحتفال بِعيد الجامِعَة السَنَويّ
في ١٩ آذار ٢٠٠٧

في حَرَم العُلوم والتِكنولوجيا، مار رُوكز

حَضَرات رؤساء الجامعات في لبنان،
حَضَرات النقباء ورؤساء جمعيّات المِهَن الحرّة وهيئاتها،
حَضَرات السيّدات والسادَة الأساتذة،
وممثّلي الهيئة الإداريّة، والطَلَبَة، ورابطات القدامى،
أيّها الأصدقاء،

قَد تكون حرب تمّوز عام ٢٠٠٦ وما رافقها من أحداث، فَتحتْ عيوننا. ففي هذا الإصطراع الكبير الذي اختلط حابله بنابله، وتَعيّن علينا أنْ نَتدبّر أمرنا، أُتيحَتْ لنا الفرصة لِنَتبيَّنَ ما هو بمثابةِ كاشفٍ. فأمْكَننا أنْ نُحَلِّل الاستراتيجيّات التي اعتَمدَها هذا الفريق أو ذاك، حَسَب مطامحه المحليّة والإقليميّة. وأَمكَننا أنْ نَروزَ ما تَتَّسم به من ذاتيّةٍ مُفرطة مصالحُ الزعماء الذين راحوا فجأةً يراهنون على هذه المناورة أو تلك، حَسَب مشاريع

متفاوتةٍ في ضبابيّتها. وأمكننا أخيراً أنْ نكتشفَ شعباً بكامله بمكوّناته المتعدِّدة، وقد اضطرّ إلى الجري في هذا الاتّجاه أو ذاك، أو إلى الاحتماء في منطقةٍ على درجةٍ متفاوتة من الأمان ؛ وأمكننا أنْ نَنظر بإعجاب إلى تفاني البعض في الوقت الذي آثر فيه البعضُ الآخر الاستمرار في عمليّات المناورة والاسترهان. ورأينا الأبطال ؛ ورأينا اللصوص، والفاسدين، والاستغلاليّين. ثمّ واجَهْنا المشاكل المُمِضَّة التي يُواجهها الكثيرون ويتمّ التعبير عنها دوماً بالصيغة نفسها : هل يُمكننا أنْ نَستمرّ في العيش في هذا البلد الذي يَعصف به هذا العددُ الهائل من الأعاصير ؟ وهل ثمّة فُسحةٌ بعدُ لأبنائنا في هذه الفوضى ؟ وما هو المستقبل الذي يُمكن أنْ يَتوقَّعه جميعُ مَن يَعيشون هنا ؟ أو هذه الطائفة أو تلك ؟ أو هذه الفئة منَ المِهَن أو تلك ؟

إنّنا نَعرفُ أنّه ما مِن أجوبةٍ عنْ هذه الأسئلة، أو على الأقلّ أنّ الأجوبةَ عنها لا يُمكنها إلاّ أنْ تكونَ ظَرفيّة، تَصلح لِزَمانٍ معيَّن. وهي أجوبةٌ نَستنبطها مِن وَحي تَصوّراتٍ تَقريبيّةٍ للواقِع، أو مِن وَحي مَشاعر عابرَة، وحَدْسٍ يصعب بِمكانٍ التثبّتُ من صِحّته. فما مِن أجوبةٍ إذاً. ولكنْ لَعلّنا نَرى في ذلك دعوةً إلى مقاربة المسألة مِن زاويةٍ أخرى. فإنَّ في الإصرارِ على البكاء باستمرارٍ على لبنان الذي يَعْصى على الإدراك تدميراً للذات. وإنّ في الانتِشاءِ بالتَغنّي بلبنان الخالد، الذي يَستمدّ وجوده منذ خمسة آلاف سنة مِن مَصادِر لا أحد يَقدر على تَحديدِها، ما يُعمي البَصيرة، ويُهيِّئ لِغَدٍ بائِس. فَلِمَ والحالةُ هذه لا نُجرِّب مقاربةً أخرى ؟ ولِمَ لا نَعترف بِحقيقةِ شَعْبٍ غَنيٍّ وجَيّاشٍ في تنوّعه، ويَسهل بالتالي التلاعبُ به، وتَسخيرُه بيُسرٍ للاستراتيجيّات، ولِمَصالح مِحورٍ معيَّن – أتُراه مِحوَر الخَير، أَمْ مِحوَر الشَرّ، مَن عَساه يَدري ؟ – أو حزبٍ أو تيّارٍ يَتفاوتُ تاريخُ تَأسيسه قُرباً أو بُعداً مِنّا، ولكنّه شَعْبٌ قد يَكون مُهيّأً في نهايةِ المطاف ليفعَل فيه عددٌ كبير مِنَ العوامِل المؤتلفة التي قد تَنجَح أخيراً في تَحقيقِ لُحمةِ هذه المَجموعة التي غالباً ما كانتْ مُفَكَّكة.

إنّ الانطلاقَ من هذا المَنْظور يَستدعي مِنّا بالتأكيد القبول برؤيةٍ مُعَيَّنةٍ للبنان لا يُنظَرُ إليه فيها على أنّه أوّلاً طوائف منفَصِلة يَتعيّن التوفيقُ بينها،

بل على أنّه متَّحدٌ مُوَزَّعٌ على مجموعاتٍ اجتماعيّةٍ متعدّدةٍ، يَسِمها الطابعُ الطائفيّ بهذا المِقدار أو ذاك، ويَستَدعي أيضاً التأكيد أنّ هذا النسيج المتعدّد التلاوين والممزَّق في غالبِ الأحيان هو أهلٌ لأنْ يستعيدَ وحدتَه، ويستدعي منّا أخيراً أنْ نَبحثَ عن الأدوات التي تُتيح للعوامِل المؤتلِفة التي ذَكرْناها أعلاه أنْ تفعلَ فِعلها. وهنا يَكمن ما هو الأكثرُ أهميّةً والأصعبُ اكتشافاً.

لا جَرَمَ أنّه حَسْبنا أنْ نرى كيف تَسير الأمور لِنُدرِكَ أنَّ الناسَ يَتبايَنونَ في تَحديد الأطراف الفاعِلين الذين سَتُناط بهم مهمّة توحيد العوامل المُتضافِرَة هذه. فَيَرى بعضُهم أنَّ هذا العمَل هو مِن شأن المرجعيّات الروحيّة في البلَد، ويَرى بعضُهم الآخَر أنّ هذه المسألة تَعني السياسيّين أو الدولة بِحَدِّ ذاتها، ويَرى بعضُهم الآخَر أيضاً أنّه لا بدَّ لنا مِن أنْ نَطلبَ مساعدة القوى الخارجيّة، الغربيّة والعربيّة، أو سواها، ويَحلم غيرهم أخيراً بالتأثير الذي يمكن أنْ يُحدثَه المجتمعُ المدنيّ وقد استيقظَ أخيراً مِن سباته وتحرّر مِن انقساماته الداخليّة. وقد يكون بالفعل لكلٍّ مِن هذه الأطراف الفاعلة دورٌ في هذه المسألة، وإنْ اقتصرَ دور بعضهم على تأزيم الأوضاع. ولكنْ يمكن إذ ذاك أنْ يَبدو لنا أنّ لنا، نحن هذه الأسرة الجامعيّة الخاصّة، أيضاً دوراً نؤدّيه، وعملاً نَقوم به، لأنّنا موجودون، ويُحرّكنا بفضل شرعتنا روحٌ خاصّ، ولأنّنا قادرون على تحقيق ائتلاف هذه الطاقات، ولأنّ في ذلك بالتأكيد واجبنا.

***

*

أوّلاً : الأسرةُ الجامعيّة

في مَطلَع هذا العام الجامِعيّ، مباشرةً بعد الأحداث المَعلومة، وفي الوقتِ الذي كانَ الحِصار الذي فَرضتْه إسرائيل على لبنان ما زال قائماً، بادرْتُ،

بغية حَشْد أكبر عَددٍ ممكن مِن الأشخاص للإسهام في إعادة إعمار لبنان، إلى تَوجيه رسالة إلى « أُسرَةِ الجامعة »، فتساءَلتُ عنْ مدى ملاءَمة استعمال هذه التَسمية. فلقد كان بإمكاني أَنْ أَتوجَّه إلى الأساتذة والطَلَبَة على غرار ما فَعَلتُ سابقاً ؛ ولكنّي فَضَّلتُ بالفعل استعمال هذا التَعبير، لأنّه كانَ عليّ أنْ أُدرِجَ في عِدادِ مَن أُخاطبهم جميع الذين يَنتَمون إلى فريقِ جامِعة القِدّيس يوسُف، ومِن بينهم أفراد الهيئة الإداريّة وقدامى الخِرّيجين.

أَبدأُ أوّلاً بأعضاءِ الهيئة الإداريّة، لأنَّ عدداً منهم كانَ قد انخرَطَ في خِدمةِ النازحين، ولأنّه بدا لي مِن الإنصافِ أيضاً أنْ نأخذَ في الاعتبار هذه الفئة مِن كِبار خَدَمة جامِعة القِدّيس يوسُف، وهم الأشخاص الذين بِدونِهم، يتعطّلُ بالتأكيدِ سيرُ الأمورِ كلّها. وإذا كنّا نُقلِّدهم الميداليّات في خِتام مَسيرتهم، يومَ إحالتهم على التقاعد، فقلّما نَذكرهم على امتدادِ أيّام العَمَل، مع أنّ انشغالهم يَبلغُ أحياناً درجةً كبيرةً، وتُرهِقهم الأعمال، ويَتعيّنُ عليهم أنْ يُواجهوا مُتطلّبات الطَلَبَة، والأساتذة، والمسؤولين عنهم، الكثيرة. وغالباً ما يكون أفراد الهيئة الإداريّة، العاملون في كلّ واحدةٍ مِن مؤسّساتنا وفي الإدارة المركزيّة، في عِداد أهل الجامِعة المخلصين، وأقوى انطباعاً بِروحِها مِن كثيرين سِواهم. فهم بالتالي جزءٍ مِن « الأطراف الفاعِلين » في جامِعتِنا، وهم يُشكِّلون مع سائر الفُرَقاء « أُسرة جامِعة القِدّيس يوسُف ».

ولكنْ علينا أنْ نتحدّثَ أيضاً عن قُدامى الخِرّيجين. ونحن هنا أمام مشكلة صعبة، لأنّه إذا توفَّرَتْ على هذا المستوى رابطاتٌ قادرةٌ على جمعِ أعضائها، في هذا الحقل أو ذاك، في مناسبةٍ محدَّدة تقتصر على حفلِ عَشاء، فقِلّةٌ هي الرابطات التي تقوم بما يَتجاوز ذلك. وكان رئيس الجامِعة السابِق، الأب سليم عَبو، قد رغِب في جَمعِ هذه الرابطات ضمن اتّحاد، وفي حملِها على المساهمةِ الفاعِلةِ في النضالِ الذي تخوضه جامِعتنا مِن أجلِ إثباتِ وجودها والدفاعِ عن حريّتها، وعن الحريّة عموماً. وقد سَعى رئيس الاتّحاد وفريقه بجدّ مذّاك إلى تفعيلِ هذه المجموعة البالغة الثقل. ولم يكن

الأمرُ يَسيراً، فضلاً عنْ أنّ الصعوبات القانونيّة بَرزَتْ وجَمَّدَت المسيرة ؛ غير أنّ خُطواتٍ كبيرة قد أُنجزَت هذه السنة. ويَبقى أمامَنا الآن أنْ نَحمِلَ العددَ الأكبر مِن القُدامى على إدراكِ أهميّة الانتماء إلى أُسرَتنا الجامعيّة.

ونحن هنا أمام قضيّة أساسيّة، وهي، على ما يرى البعض، قضيّة ثقافة. نحن نعرف أنّ التنشئة التي يتلقّاها الطَلَبَة في جامِعة القِدّيس يوسُف تتّصف بالجودة، ولكنّها تُقدَّمُ – أو كانت تُقدَّمُ، إذا أخذنا في الاعتبار التغييرات التي تحقَّقت بعد اعتماد النظام الأوروبيّ للأرصدة الجامعيّة القابلة للتحويل – عبر سلسلةٍ مِن الأنماط التعليميّة التي تُغَلِّب العاموديّ على الأفقيّ، والخطاب المفروض على مشاركة الجميع، والتعليم المِنْبريّ على التعلّم. وأمّا نتيجة ذلك فجليّةٌ واضحة. فإنّ ما يتكوّن على توالي السنوات، هو جموعٌ مِن الطَلَبَة التي تُعنى بالشهادة أكثر مِن عنايتها بالحياة، وسرعانَ ما تتفرّق فور بلوغها هدفها. وقد ينشأ بعد انقضاء عددٍ مِن السنوات شعورٌ ما بالتعاطف. وقد تظهر التزاماتٌ ذاتُ طابَعٍ جماعيّ في بعض الظروف التي يشعر فيها الخِرّيجون بالحاجة إلى التلاقي مِن جديد. ولكنّه سيكون مِن الصعوبة بمكان تحقيق المزيد مِن الالتزام خارج إطار بعض اللقاءات السنويّة التي يغلب عليها الطابَع الاجتماعيّ... هذا إذا قُدِّرَ لها أنْ تَتمّ.

يَبدو لنا جليّاً في ضوءِ ذلك أنّه قد آنَ الأوان لمقاربة المسألة بطريقةٍ مختلفة. وهذا ما يَستنهض على حدٍّ سواء المسؤولين في جامِعتنا ومجموع مَن تأثَّروا بالتنشئةِ التي تُسديها. فيُطلَب منَ المسؤولين أنْ يُركِّزوا على كلِّ ما يتعلّقُ بتجاربِ الحياة الفعليَّة، والتواصل، والحياة الطلّابيّة، ومشاركة الجميع في ما يَنشأ، مِن غيرِ أنْ يهملوا المعارف التي ينبغي نقلُها. ويُطلَب منهم في خلاصة الأمر أنْ يسعوا إلى بناء جماعةٍ منفتحة عوضاً عن كتلة جامدة معرّضة للتشظّي إلى مئاتٍ مِن التجمّعات الصغيرة، ما إنْ تُوَزَّع شهادات التخرّج. ويُطلَب مِن الآخَرين أنْ يتخلّوا عن لامبالاتهم وعن الاهتمام الضئيل الذي يَخصّون به أسرتهم الجامعيّة. ونَستطيع أنْ نطلبَ أيضاً مِن الفريق الأوّل اهتماماً أكبر بهذه الفئة الكبيرة مِن قُدامى جامِعة

القدّيس يوسُف المنتشرين في البلادِ، وهو اهتمامٌ يُمكنه أنْ يتجسّدَ، خاصّةً خارج لبنان، في مجموعةٍ مِن المبادراتِ الملموسةِ ؛ ونَستطيع أنْ نطلبَ مِن هؤلاء القُدامى بدورِهم، أنْ يُعزِّزوا التزامهم بمساعدةِ الطَلَبة على الصعيدَين الماديّ والمِهْنيّ، وأنْ يَبذلوا قُصارى جهدهم ليجدوا السبيلَ إلى ترسيخِ حضورِهم بصفتهم خِرّيجين على الساحة السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة.

فَههنا عملٌ كثير يَنبغي القيام به. ولكنّ الجماعة تُبنى بفضلِ الخطابات والأفعال معاً، ومِن خلالِ إقامةِ علاقاتٍ أو إحيائها في حال تعرّضها للانقطاع، وفي خلاصةِ الأمر مِن خلالِ إدراكنا أنّنا حقيقةٌ اجتماعيّةٌ لها ثقلها وتتمتّع بحضورها، لأنّها تمتلك أيضاً روحها الخاصّة، وطابَعها المميَّز الذي يُمكن دوماً التعرّف إليه. فمِنَ المهمِّ إذاً أنْ نتجاوز حديثنا عن الأطرافِ الفاعلة في جامِعتنا – أي الطَلَبَة، والأساتذة، وأعضاء الهيئة الإداريّة، والقدامى – إلى إبراز ما يمدّ هذه الجماعة بأسبابِ الحياة.

ثانياً : بِناء أسرتنا الجامعيّة

إنّ المُتطلّبات البالغة الوضوح التي تَتَضمّنها شرعتنا، هي بالتأكيد ما يَنبغي له أنْ يَنفح الحياة في أسرتنا الجامعيّة، ويَمدّها بأسباب الوجود. فَهي تُحدّثنا عن « رسالة جامعتنا الثقافيّة » ؛ وعن « تَعزيز الشَخصيّة الإنسانيّة بأبعادها كلّها » ؛ وعن البحثِ العلميّ، والحريّة، وخدمة المجتمعات التي تُحيطُ بنا، وعن المشاركة ... وهذه كلّها قِيَمٌ لا يَسَعنا أنْ نَتغاضى عنها. ولكنْ لعلّه مِن المُفيد، قبل أنْ نَتطرَّق إلى ما يُكَوِّن روح أسرتنا الجامعيّة، أنْ نُذَكّر اليوم بأنّه مِن الضَروريّ أنْ نَتعرّفَ البِنى التي مِن شأنِها أنْ تُتيحَ لنا أنْ نَتمتّعَ بالوجود معاً.

لقد ذَكَرْنا منذ قليل المشاكل التي غالباً ما حالتْ دون انتماء القدامى إلى أسرتنا انتماءً حقيقيّاً. ومردّها في الواقع إلى بِنْية تعليميّة تقليديّة إلى حدٍ

كبير. ويبدو لي أنّ هذه البِنية وهذا النظام هما بالتحديد ما طرأ عليه تغييرٌ كبير حين قَرَّر المسؤولون في جامعتنا اعتماد النظام الأوروبيّ المعروف بنظام الإجازة والماستر والدكتوراه (LMD) وإدخاله حيّز التطبيق مقترناً بتوزيع الأرصدة وفق مفهومها الخاصّ بتلك المنطقة مِن العالم. فنحن هنا أمام نظام أساسيّ يُعيد رسمَ نَمَط العلاقات التي يَنبغي أنْ تقوم بين الطَلَبَة، والأساتذة، والمسؤولين. ونحن هنا أمام نظامٍ يُتيح إبراز البُعد الخاصّ بالحياة الطالبيّة بمقوّماتها المختلفة (حياة التسلية، وحياة الالتزام، وحياة الانفتاح الحرّ)، إلى جانب حياة العمل. ونحن هنا أمام نظامٍ يضطرّنا إلى ابتكار نَمَط تواصلٍ بين الأطراف الفاعلة في جامعتنا كافّةً، يتجاوَز في فاعليّته كلّ ما تحقَّق على هذا الصعيد حتّى اليوم. فيمكننا إذّاك، وقد نُسِجَت بيننا جميعاً أواصر أقوى، أنْ نَحلَم بقيام أسرةٍ جامعيّة أمتَن.

ولكنْ علينا ألاّ نَكتفي بذلك. فالأسرة الجامعيّة تَشتمل أيضاً على مجموع المِهَنيّين الذين يَتعيَّن عليهم، بعد تخرّجهم مِن الجامِعة، أنْ يُواصلوا تَنشئتِهم الخاصّة وأنْ يَتألّقوا في الوقت نفْسه في عالم الشركات والأعمال، وفي مؤسّسات الدولة والمجتمع المدنيّ. فعلينا بالتالي أنْ نُفكّر في بنىً تُتيحُ للجميع أنْ يعيشوا انتماءَهم إلى الأسرة الجامعيّة. فعلينا أنْ نَبتكرَ في كلِّ مؤسّسةٍ مِن مؤسّساتِنا، برامجَ تنشئةٍ مستمرّة – وهي متوفِّرة حاليّاً في عددٍ كبيرٍ مِن كليّاتنا ومعاهدنا – تقتصر على التأهيل أو تُتَوَّج بالحصول على الشهادة، مِن شأنها أنْ تُتيح لكلّ فردٍ أنْ يواصل مسيرته وأنْ يُحقّق تقدّماً. ويُمكننا أيضاً أنْ نُنشئ في كلّ مؤسّسةٍ مِن مؤسّساتنا، مجالس أو لجاناً ذات طابعٍ مِهَنيّ، يُنشّطها قُدامى الخِرِّيجين أو غيرهم مِن الشخصيّات، تُمكِّنها مِن أنْ تُراعي في تطوّرها مقتضيات تطوّر المجتمع. ويمكن أخيراً أنْ تَقوم بين الطَلَبَة والقدامى علاقات مِن شأنها تَعزيز قِطاع التدريب وفرص العمل الأُولى، وأنْ تُوطّد في الوقت نفسه التضامن الاجتماعيّ الذي يَشدّ الناس بعضهم إلى بعض ويُمكِّن منذ اليوم الطَلَبَة المعوزين مِن أنْ يُتابعوا دراستهم.

إنّ إنشاءَ هذه البنى المختصَّة أمرٌ مهمّ، ولكنّه يَتطلَّب تَعزيز نظام تواصل شامل تماماً، وهو نظامٌ يُتيح لكلّ واحدٍ منّا أنْ يَطَّلع على ما يَجري في نطاق الأسرة الجامعيّة كلّها، بما يؤول إلى قِيام علاقاتٍ مختلفة مِن شأنها أنْ تُوطِّد انتماء الكلّ إلى هذه المجموعة. فيُمكن إذّاك لأطراف الأسرة الجامعيّة الفاعلين، وقد تَثبَّتوا على قاعدةٍ مِن القِيَم الأساسيّة، وارتبطوا فيما بينهم بسلسلةٍ مِن البنى التي تَتَّصف بدرجةٍ عالية مِن التخصّص، والتَحَموا في نظامٍ مِن التواصل المُحكَم، أنْ يُؤكّدوا حضورهم، ويوجّهوا إلى المجتمع الذيَ يَعيشون بين ظهرانَيْه رسالةً ما. وهذا هو على الأقلّ ما يُمكننا توقّعه. وفي الواقع، حتّى يَتحقَّق ذلك، لا شكَّ في أنّ وعياً مشتَرَكاً قد أخذَ بالظهور، ولعلّه يُمثِّل الأهمّ في هذا المجال.

ففي المحاضرة القيِّمة التي ألقاها في شهر أيلول عام ٢٠٠٦ الفيلسوف آلآن رينو (Alain Renaud)، وموضوعها « دور المؤسّسات الجامعيّة في تَطوّر ثقافة ديموقراطيّة أوروبيّة »، استعرَضَ تاريخ الجامعة، هذه الهيئة التي ينبغي لها أنْ تكون دوماً « الوحدة الجامعة بين المتعدِّدات ». فذكَّر بأنّ الجامعة شكّلتْ، في عهدِها الأوَّل – أيْ في القرون الوسطى – الوحدة بين الأساتذة وجمهورهم في مواجهة الحكّام؛ ثمّ غَدَت الجامعة، في أعقاب الأزمة التي عاشتْها في القرن الثامن عَشَر، وبتأثيرٍ من الالمانيّ هامبولت (Humboldt)، « حيّزاً للتنشئة، يَجمع بين العلوم المختلفة ويُبرز وحدتَها الداخليّة ». ولكنّ هذا النموذج يَترنّح اليوم مِن جَرّاء أسباب تَتعلَّق مِن جهة بازدياد أعداد جماهير الطَلَبَة، ومِن جهةٍ أخرى بتَوَزُّع المعارف على قِطاعاتٍ تُقيم فيما بينها حواجز فاصِلة قاطِعة. وإنّه لَمِن المفارقات أنْ تَتلاشى الجامعة باعتبارِها الوحدة الجامعة بين المتعدّدات، في الوقت الذي يتزايد فيه عدد الجامعات؛ بل يُعلِن بعضُهم منذ الآن نهاية هذه الظاهرة التي طالما اعتبرناها أساسيّة لعالَمنا.

ولكنّ الآن رينو لا يتبنّى هذه الرؤيا الأبوكاليبتيّة، ويُلاحِظ مقتفياً في ذلك أثر ليوبولد سيدار سنغور (Léopold Sédar Senghor)، أنّ

اللفظة اللاتينيّة « Universitas » أي « الجامعة » تُحيل في الواقع إلى اللفظة اللاتينيّة « Universum » في معناها الدالّ على الكونيّ والكلّي وعلى القِيَم التي يمكنها الارتقاء إلى مرتبة الشموليّة. ويَستنتِج مِن ذلك أنّ ما يَجب أنْ يَتملّك الجامعة اليوم هو هذا الوعيُ للقِيَم التي ستُساعِد بالفعل في تَحقيق الوحدة بينَ الاتّجاهات الثقافيّة المتعدّدة التي نَعيش في خِضمِّها. ومِن هذا المُنطَلق مثلاً، يَرى رينو أنّ أوروبّا لا يُمكنها أن تَقتصر على اليورو فحسْب، بلْ هي تَقوم أيضاً على هذه النفحة الإضافيّة مِن الروح التي يَتعيّن على الجامعيّين أنْ يُوفّروها، حتّى تَنشأ أخيراً مساحاتٌ ثقافيّةٌ يُمكِن الناس أنْ يَعيشوا فيها.

فينبغي لنا بالتالي أنْ نَتفحَّص أمورنا، وأنْ نُردِّد لأنفسِنا أنّ ما سيُكوِّن أسرتنا الجامعيّة هو وعينا العميق بأنّنا حَمَلَة قيمٍ أساسيّة لمحيطنا بكامله. ولكنْ لا بدّ أنْ نُحدِّد هذا المحيط. لقد دعا ألآن رينو الجامعات الأوروبيّة التي تَوَجَّه إليها بالخطاب أنْ تُنَمّي « ثقافةً ديموقراطيّة أوروبيّة ». أمّا نحن، هنا بالذات، في لبنان، فعلينا في ضوء تقاليدنا والمحيط الذي نَعيش فيه، أنْ نقولَ إنّ رسالتنا هي بالضرورة ثُلاثيّةُ الأبعاد. فجامِعة القدّيس يوسُف هي أوّلاً فرنكوفونيّة ؛ وهي أيضاً متجذِّرةٌ في العالَمِ العربيّ؛ وهي أخيراً منفتحةٌ منذ زمنٍ بعيد على أوروبّا.

فإنّ أوّل ما يَنبغي أنْ يَعنينا هو رسالتنا الثقافيّة الفرنكوفونيّة. ونرى بالطبع هنا أيضاً أنّ ليوبولد سيدار سنغور هو خيرُ مَن حدَّدَ هذه الرسالة على أكمل وَجه، عندما قال : « إنّ الفرنكوفونيّة هي هذه الأنَسيّة الشاملة التي تَنسج خيوطها حول الأرض ؛ وهي هذا الاتّحاد الوثيق بين ما في القارّات كلّها، والأعراق كلّها مِن « طاقاتٍ كامنة »، تَستيقظ بفِعل دفئها المتكامل ». ولقد علَّق الكاتب الفرنكو – هاييتي رينيه ديبستر (René Depestre) خلال مؤتمر الكتّاب السود الذي انعقد في شهر أيلول عام ٢٠٠٦ على هذا القول، فقال : « إنّ فكرة التكامل بين الطاقات الكامنة في متخيَّل (imaginaire) شعوب العالم هي في نَظَري ألفباء الأنَسيّة العالميّة الشامِلة والمؤهّلة لأنْ

ترفع، بواسِطة تعاضدها المؤتَلِف، إلى مستوىً لم يُبلَغ مِن قبل، معدّلَ الثقافة الديموقراطيّة التي تَفتقِر إليها مغامرة العولمة افتقاراً فاضحاً ».
فعلينا ألاّ ننْسى هذه الدعوات التي تَحثّنا على أنْ نُنَمّي بدون كَلَل هذه الثقافة الفرنكوفونيّة، في الوقتِ الذي نَنْفتح فيه على التعدّد اللغويّ؛ وتَقتَضي هذه الدعوات منّا أنْ نَكون شهوداً لهذه « الثقافة الديموقراطيّة » التي حدَّثَنا عنها ديبِستر.

لكنَّ هذه الشهادة التي علينا أنْ نؤدّيها، لا يمكن تصوّر النظر إليها على أنّها رمزٌ تمثيليّ فحسب، أو خطابٌ مجرّد لا تأثيرَ له في الواقع المحسوس الذي يحيط بنا. فنحن موجودون في لبنان، في صميم منطقة الشرق الأدنى.
ويُمكننا أنْ نَقومَ بدورنا في ضوء وقائع هذا العالَم الثقافيّة. ولهذه المنطقة نَمَطها الخاصّ في العيش وفي التعبير، وتَكثرُ فيها الانتماءات المختلفة. فَعلينا أنْ نحافظَ على ما في هذه المنطقة من روحٍ مُبدِعَة ومجدِّدَة، وعلينا أيضاً أنْ نبذلَ قصارى جهدنا حتّى لا تتصلّب الانتماءات المختلفة وتَتعارَض. لقد قلنا إنّ انتماءنا إلى الفرنكوفونيّة يحثّنا على تعزيز كلّ ثقافة ديموقراطيّة ؛ أمّا انتماؤنا إلى العالَم العربيّ فيحملنا على بذل قصارى جهدنا حتّى تُولِّد الحوارات المتبادَلة علاقات ما تنفكّ تزداد متانةً بين هذه الانتماءات المختلفة، فيغدو طيبُ التعايش الذي يمتاز به هذا العالَم مصدر ابتكارٍ. فمن هذا المنظور بالذات، تقوم جامعتنا بكلّ ما هو ضروريّ لتوطِّد علاقاتها مع الجامعات العربيّة، ولتستكشف إمكانيّات إقامة شَراكاتٍ أفعل تستهلّها في مرحلةٍ أولى مع مصر والإمارات العربيّة المتّحدة على حدٍّ سواء.

بقي علينا أنْ نَتحدَّث عن هذه المجموعة الأخيرة التي ينبغي لها، من أجل أسرتنا الجامعيّة، أنْ تطبع وعينا، عنَيتُ بها أوروبّا. وإذا تَساءل البعض : لماذا أوروبّا بالذات، أجبناهم بأنّ فرنسا هي مصدر تقليدنا الجامعي والتزامنا الأكاديميّ، وبأنّها ما زالت حاضرةً بقوّة إلى جانبنا، بل هي تُساهم فعليّاً في مشاريعنا ؛ وبأنّ أوروبّا هي الحيّز الجغرافيّ الذي يقع فيه هذا البلد، وأنّها المرجعيّة التي نسترشد بها في محاولاتنا الإصلاحيّة،

وأنّها أيضاً، بالنسبة إلينا جميعاً، المقام الرفيع لحقوق الإنسان، وهيكل الحريّات التي يَنبغي دوماً ترسيخها. وضمن هذا التوجّه أيضاً، نثابر على الالتزام في الهيئات الأوروبيّة-المتوسّطيّة التي تنشأ وتَضمّ عدداً كبيراً مِن الجامعات، وعلى الانخراط في الوقت نفسه في الشراكات الأوروبيّة والعربيّة التي تُبصر النور حاليّاً.

الآداب الديموقراطيّة، وحقوق الإنسان، والحريّة، وطيب التعايش رغم تعدّد انتماءاتنا، والابتكار، فتلك هي القِيَم التي لا ينبغي أنْ تنظّم وعينا الجماعي فحسب، بل ينبغي لها أيضاً أنْ ترسّخ في كلّ واحدٍ منّا وفينا جميعاً، القوى المحفّزة التي تؤهّلنا لأنْ نشعّ في عالمنا. فإنّ الانتماء إلى وعيٍ جماعيّ واحد، ينبغي ألّا يشكّل حالةً تعنينا وحدنا، بل ينبغي خاصّةً أنْ تكونَ ما يحملنا على أنْ ننشط في هذا العالم.

ثالثاً : أنْ نَلتزم بوصفنا أسرةً جامعيّة

إنّي لَعَلى يَقين بأنّه من البَداهة في نظرنا كلّنا القول إنّه إذا كان لأسرتنا الجامعيّة هذه دور على المستوى الداخليّ، فلا بدّ أنْ يكون لها أيضاً دورٌ على المستوى الخارجيّ. فَفي الداخل هي ما يَمنح جامعتنا حضورها في علاقاتها المتعدّدة والمتنوّعة بالدولة، وعالَم التعليم العالي المترامي الأطراف، وبعالَم المؤسّسات والشركات الذي يفوقه أهميّة، الذي تنتشر فيه هذه الأسرة. ولا يَسعنا في هذا المنظور إلّا أنْ نؤكّد التضامن الضروريّ الذي يجب أنْ يربط جميع أفراد أسرتنا، والذي من شأنه أنْ يمكّن الطَلَبة من الشعور بأنّ قُدامى الخرّيجين يدعمونهم في سعيهم إلى الحصول على عمل، ومن شأنه أيضاً أنْ يمكّن الأساتذة من الشعور بأنّهم قادرون على الاستحصال من الشركات المستعدّة لمساعدة جامعتنا على المبالغ الضروريّة لتمويل أبحاثهم. وغنيٌّ عن البيان أيضاً أنّه، في حال اتّخذَت السلطات الوطنيّة قراراتٍ خطيرة تُسيء إلى جامعتنا، وتعتدي على حريّتها

وصلاحيّاتها، ستُبادر أسرتنا الجامعيّة، في إطار تضامنها المتواصِل، إلى التحرّك وحشد طاقاتها.

ولكن يبدو لي أنّه يتعيّن على أسرتنا الجامعيّة، وقد تحقّق تضامنها المنشود هذا، وتعزَّزت بالآليّات التي تمدّها بأسباب الحضور، وحفّزها الوعي الذي يتملّكها وأتينا على ذكره أعلاه، أنْ تقوم بالمزيد. وإنّها لَتقوم بذلك على كلّ حال، غير أنّ التذكير بهذا الأمر من شأنه أنْ يؤيّد هذا النشاط. فعليها أوّلاً أنْ تكون حاضرةً في مؤسّسات الدولة، بما يمكّنها من المشاركة الفاعلة في قراراتها. وعليها ثانياً أنْ تلتزم بمشروع بناء المجتمع المدنيّ. وعليها أخيراً أنْ تكون مستعدّة للمبادرة، في الحالات الطارئة، لمساعدة ضحايا هذه الكارثة أو تلك.

إنّ الجانب الأخير الذي ذكرتُه هو بالفعل من البديهيّات. ونحن نعرف ذلك، ولقد خَبرناه مؤخّراً. فما إنْ حَلَّت المصيبة ببلدنا، حتّى تجنَّدَت الإرادات الطيّبة المنبثقة من مختلف شرائح أسرتنا الجامعيّة. فتألّفَت خلايا عَمل، وأُعِدَّت مشاريع نشاطات، ومنها المشاريع الخاصّة بإعادة الإعمار في مدينة بعلبك، أو بعقد توأمة بين بلدة قانا وجوارها وجامعة القدّيس يوسُف. ولقد اتُّخِذَت مبادرات، على المستويَين الفرديّ والجماعيّ. ويُمكننا إبداء الأسف لأنّ هذه المبادرات لم تستقطب إلّا عدداً محدوداً من الأفراد، إذا ما أخذنا في الاعتبار من جهة عدد أفراد أسرتنا الجامعيّة الكبير، ومن جهةٍ أخرى جسامة المهمّات المطلوب إنجازها. ولا يسعنا مع ذلك إلّا أنْ نَبتهج بقيام هذه المبادرات، وبأنّ جامعتنا استطاعَت أنْ تُبرِزَ للملأ الأهميّة التي تُوليها هذه الالتزامات، التي تجسّد تضامنها المُعلَن مع المجتمع اللبنانيّ.

ولكنّ هذا التضامن يجب ألّا يقتصر على وقتٍ محدّدٍ، وظرفٍ معيّن. بل يتعيّن على التنشئة بكاملها في جامعتنا أنْ تدفعنا إلى العمل، وإلى التصرّف بمهْنيّة عالية من أجل خير مجتمعنا. لقد ساهَم إلى حدٍّ كبير رجالٌ ونساءٌ ينتمون إلى أسرتنا الجامعيّة في رسم وجه لبنان، في مراحل نشوئه؛ غير أنّ المتغيّرات السياسيّة والاجتماعيّة التي عرفناها لم تسمح أنْ تتواصَل هذه

المسيرة بالكثافة نفسها. فعلينا أنْ نسترجع هذه الديناميّة. وفي أوقات الاضطرابات المزمنة هذه، يتعيّن على أسرتنا الجامعيّة أنْ تكون حاضرةً وفاعلة في بِنى الدولة، وفي الهيئات الاقتصاديّة والمِهَنيّة التي تُتيح لكلّ الذين يعملون في لبنان والمنطقة، إقامة مجتمع أكثر عدالةً وسلاماً، يتمتّع بقدرٍ أكبر من الحيويّة ومن الانفتاح على الأبعاد الثقافيّة المأمولة كافّة.

إنّ هذا الانخراط الضروريّ، الذي يشكّل العلامة الدالّة على أنّ أسرتنا الجامعيّة بمقوّماتها المختلفة – من قدامى، وأساتذة، وطَلَبة، وإداريّين – قد توصَّلَت إلى اكتشاف نفحة جديدة، إنّ هذا الانخراط الضروريّ على صعيد الدولة والهيئات المِهَنيّة التي تَحوطها، ينبغي أن يكتمل بأخذنا في الاعتبار بدون أدنى تحفّظ كلّ ما يتعلّق بالمجتمع المدنيّ والحركات التي تنشأ في إطاره. ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه المنظومة الجديدة بمجملها لا تخلو من طرح عددٍ من المشاكل في لبنان اليوم، من جرّاء الضغوط الطائفيّة التي لا يمكنها أنْ تكون بمنأىً عنها والتي تُحدث عدداً لا يُستهان به من العواقب الوخيمة. ولكن لعلّه بمقدور جامعتنا التي عرفَت أنْ تفرض حضورها من دون أنْ تغدو أداةً طيّعة في خدمة طائفة من الطوائف، والتي تسعى دوماً إلى توحيد مكوّناتها المتعدّدة، أنْ تقدّم الكثير إلى المجتمع بأسره. لقد ذَكَرنا منذ لحظات أنّها عرفت أنْ تبرهن ذلك، عندما انخرطَت بدون تحفّظ في عمليّة إعادة إعمار لبنان المكلوم، في صيف العام ٢٠٠٦. ويُمكنها بالتأكيد أنْ تحقّق أيضاً الكثير في هذه الحقول.

إنّ الانفتاح على النشاطات التطوّعيّة، والالتزام في المؤسّسات الرسميّة والمِهَنيّة، والمشاركة في نشاطات المجتمع المدنيّ، هي المهامّ الكبرى التي ينبغي لأسرتنا الجامعيّة أنْ تضطلع بها. إنّ هذه الأسرة حقيقةٌ قائمة، وهي مزوّدة بوعي ينظّم نظرتها إلى العالم، فلا يَسَعها بالتالي أنْ تبقى مكتوفة الأيدي، بل عليها أنْ تؤدّي دوراً أساسيّاً في لبنان والمنطقة كلّها.

***

*

خاتمة

لم نُقرّر الاسترسال في الحديث عمّا يشكّل جوهر أسرتنا الجامعيّة، بغية اغتنام الفرصة لنمتدح فيها مرّةً جديدة أنفسنا. ولكنّ جلّ ما توخّيناه هو أنّنا قد مَرَرنا كلّنا بتجربة أليمة، وأنّه يتعيّن علينا، بوصفنا جزءاً لا يتجزّأ من مجتمع أوسع، أنْ نسعى إلى القيام بدورنا. كان لا بدّ في البداية أنْ نمدّ يد العون إلى مَن وجدوا أنفسهم مطرودين من ديارهم، ثمّ دُعينا إلى مرحلة تضميد الجراح وإعادة الإعمار. أمّا الآن فنحن مدعوّون إلى المساهمة في إعادة بناء مجتمع له أبعادٌ متعدّدةٌ، وثقافاتٌ مختلفة، وتواريخ طائفيّة على قدرٍ كبير من التباين.

تنصّ شرعتنا على أنّ جامعة القِدّيس يوسُف هي هذا التعدّد الذي جرى توحيده، وهي هذه الطاقات التي تمّ توظيفها، ولقد عبّرنا عن ذلك بطريقتنا الخاصّة، في ما قلناه. فإنّ أسرتنا الجامعيّة هي مجموع هذه المعطيات التي ينبغي أنْ نعيشها في أحرامنا الجامعيّة، شرط أنْ نستكمل تطبيقها خارج أسوارنا، بالتنسيق والائتلاف مع الشركاء الآخرين الكُثُر. غالباً ما يحدّثوننا عن إشعاع جامعتنا : ولكنّ هذه المهمّة يجب ألّا تقتصر على عددٍ محدودٍ من الباحثين والطَلَبة اللامعين، وألّا تقتصر على الاتّفاقيّات المتعدّدة المُتراكمة. بل هي عمل أسرةٍ بأكملها يحدوها وعيٌ عميق لِما يُمكنها أنْ تقوم به، ولِما يتعيّن عليها أنْ تقوم به، حتّى تعمل دوماً، داخل لبنان وخارج حدوده، على أنْ يتطوّر وينمو في جوٍّ من السلام جميعُ مَن ورثوا من تاريخهم الخاصّ رؤى للعالم متباينة دوماً، غير أنّنا لا نستطيع أبداً أنْ نعتبر أنّ التوفيق بينها أمرٌ مستحيل.

نَقَل النَصّ إلى العرَبيّة الدكتور هنري العَويط